آثار تغلث فلاسر

بقلم حضرة المؤرخ المحقق جرجي افندي بك

لقد استنطق العلم الصخر الاصم فباح بما كنَّت الدهور من خفيات تاريخها حتى اصبح الطلبة وقد وضحت لهم حقائق الماضي تعرفوا حال الامم السابقين او كادوا وما برحوا يزجون ركاب السعي توصلاً لاملاء التاريخ وعساهم يفلحون

فمنهم من جاب الاقطار سهولها وحزونها وقلب الانقاض والاطلال ظهراً لبطن فاظهر دفائن الوقائع واماط اللثام عن محيا التاريخ . اعتبر ذلك بالآثار الجمة التي بوزت للعيان تالية بغير لسان احاديث الذين انشأوها مكذبة كثيراً من اقوال المؤرخين القدماء الذين نقل اكثرهم الاخبار على علاتها وزيفوها من عند انفسهم

فمن الآثار التي ظهرت بين انقاض المدائن الشرقية العريقة في العمران اربع اسطوانات من الاجر كانت خبيئة في اربع من زوايا الهيكل العظيم الذي كان مشيداً في مدينة اشور وهي عاصمة المملكة الاشورية في بدء عهدها قبل ان شيدت مدينة نينوى الفائقة الصيت وتحرَّف انقاضها الى هذا العهد بقلعة شرقات فحملت تلك النفائس الى المتحف البريطاني في مدينة لندن وهي مكتوبة باللغة الاشورية والقلم الاسفيني فاما اللغة فمن الالسنة البائدة التي اخفى الدهر عليها بعد ان ذهب بقومها اشتاتاً وطمس حقائق اخبارهم حتى كادت تكون نسياً منسيًّا لولا روايات المؤرخين الاقدمين التي حسبها القوم يومئذٍ كل ما بقي من اخبار اشور

واختلف العلماء في اللغة الاشورية فرأى بعضهم ان الانساب المحفوظة في الاسفار المقدسة تشير الى القربى بين اشور وعابر وارام وان اليونان على اختلاف كتَّابهم قلما كانوا يفرقون بين السوريين والاشوريين والبابليين فاستنتجوا من ذلك ان الامم المتقاربة لا بدَّ ان تكون لغاتها متماثلة بعض الشيء ولهذا ارتأوا ان الاشورية قريبة من العبرانية والسريانية والكلدانية وهذه اللغات معروفة النسبة لاصلها السامي . ورأى فريق آخر من العلماء ان هذا الرأي نائل لانهم حسبوا بعض اسماء الملوك ذات صبغة مادية (فارسية) او آرية فردَّ عليهم القائلون بالرأي الاول ان الاسرة المالكة من اصل مادي وان صيغ اسمائهم ظلت محفوظة في العقابهم بخلاف سائر افراد الامة ولكن ما عتم ان وجدت الآثار الاشورية واستفتت انظار علماء اوربا وكان من غرائب امرها ان الرحالة نيبوهر اصاب بعضاً من الكتابات التي

وجدها بين اطلال برسبوليس وان اباد ائن الفارسية الدائرة فاتصلت نسخة بالاستاذ كروتفند وشرع يحلها وفي خلال ذلك كان السر هنري رولنصن وهو يومئذ فتى في الخامسة والعشرين من عمره في اصفهان فرأى تلك صفيحة اثرية فمال اليها ونسخها واشتغل بها فجرى بد الى حلها فنال بعض النجاح ومثله فاز الاستاذ كروتفند فكلاهما جدّ في سبيل واحد وكلاهما احرز فخر النجاح بحلّ القلم الاسفيني ومعرفته غير انهما لم يكونا على صلة فكان عملها من قبيل توارد الخواطر وبهما فتح الباب الذي كان مغلقاً مدى الوف من السنين بالصبر والمزاولة ولقد حكى السر رولنصن عن نفسه في كتابة قديمة له نشرها بين اعمال المجمع الاسيوي قال

ان الصفائح التي اختارها للدرس كانت صفائح باغستان الدائعة الصيت وانه كان اول من وقع نظره رآها شطرين وكل منهما مكتوب بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والسكيثية والاشورية ولكنها جميعها بالقلم الاسفيني ورأى انها متماثلة الحروف الا في مواضع من كل صفيحة فارتأى ان تلك الحروف تدل على اعلام وانها ربما كانت اسماء ملوك تولوا الاريكة الفارسية على التعاقب فعرض اسماء خشايارشا ودارا يوس وزركسيس وجمع يقابل احرف اسمائهم على هاتيك الحروف فكان فرضهُ صحيحاً فابرقت اسرتهُ وانصرف بعد ذلك بكليته للبحث عن سائر الحروف مستعيناً على معرفتها باعلام اخرى حتى توفق لاظهار حروف الهجاء فاز باعظم اكتشاف لغوي بعد نجاح شامبوليون بمعرفة قلم الهيروكليف المصري . وفتح منذ حينئذٍ باب الامعان لاهل البحث والتدقيق اعتبر ذلك بما اثر كتاب سرّ النجاح من ان السر هنري رولنصن بعث نسخة عن آثار باغستان الى بلاده فاطلع عليها رجال غيرهُ من قبل ولكنهُ كان مشتغلاً بمعرفة القلم الاسفيني فقال بخطاه نسخها حتى اذا تفرغ لذلك يناسخها وانعم في الآثار نظرهُ وجد المعترض مصيباً . واعقب هذا اهتمام العلماء بالآثار القديمة اهتماماً عظيماً حتى صارت قراءة الاشورية منها علماً قائماً بذاته يُقال لهُ عندهم Assyriology كما صارت معرفة الآثار المصرية علماً آخر يسمونهُ Egyptology واخذ الباحثون بدراسة هذه الآثار فقوم من جملة العلماء شرعوا ينقبون عن الالفاظ حتى اهتدوا الى معرفتها اما لاقترابها من الفاظ مماثلتها في لغات اخرى معلومة واما لطرائق اخرى حتى ظهرت لهم اللغة الاشورية كانها كما كانت فرأوا من نتائج بحثهم فيها انها سامية لا ريب فيها وسكوا ان الاسماء التي كانت صيغاً مادية لم تكن من الاشورية في شيء ولكنها من اوضاع المؤرخين والمعترض ان يقول كيف نسلم لقراء اللغات الدائرة بما يزعمون ترجمتهُ عن الاصل البائد

ونحن لا علم لنا بحقائق القضيَّة بل انَّا في موقف لا نُطالَب فيهِ بالتسليم عن غير اقتناع ولا نجبر على الاذعان جبرًا . قلت ان العلماء حراصٌ على الحقيقة يطلبونها اينما وجدت وقد تكفلت الجمعيات بحفاظ الحقائق مصونةً من الشكوك وباظهار خفيات الريب وفي سويداء البحث رجالٌ يرحلون من الاقلام شتاتًا ويذودون عن الحقيقة ما يستطيعون غير مدَّخرين وسعًا ولا مبقين على باطلٍ يعرفونهُ من ذلك انهُ لما شاعت بينهم ترجمات القلم الاسفيني وذاعت اخبار كشافها برزت الجمعيَّة الملكيَّة الآسيَّة في لندن تريد التثبت في الامر لقبولهِ ان كان صحيحًا او الاجهار برفضهِ ان كان مشكوكًا فيهِ ولو نصرهُ اعظم الناس قدرًا فاختارت من الآثار الاشورية الاسطوانات الاربع المعروفة باثار تغلث فلاسر ونقلت عنها اربع نسخ وبعثت نسخة منها الى كلٍّ من العلماء الاعلام السر هنري رولنصن (وهو الذي حلَّ رموزها) والمستر فوكس تالبوت والدكتورين هينكس واوبرت واوعزت اليهم ان يشتغل كلٌّ منهم بترجمة ما لديهِ غير مستعين بالآخر وانهُ متى اتمَّ الترجمة يبعث بها الى كاتب الجمعيَّة مختومةً لترى الجمعيَّة رأيها في صحتها فلما اجتمعت الترجمات الاربع ونضَّت الغلافات وقرئت ظهر منها الشبه القريب بين المؤدى والوحدة التامَّة بين الاعلام المنقولة فحكمت الجمعيَّة بصحة المبدإ العلمي الذي اتخذهُ الاثريون في ابحاثهم. ومنذ سنة ١٨٥٧ شرع علم الآثار يتقدم حتى صار القوم يعرفون معاني كثيرٍ من الالفاظ والعبارات

ولقد كان القلم الاشوري في بدء امرهِ صوريًّا (هيروكليف) كالمصري بمعنى ان قدماء الكلدان كانوا اذا ارادوا التعبير عن شيءٍ صوروهُ بذاتهِ ثم عدلوا عن التصوير التام لما فيهِ من العناء والتطويل الى الادماج والاشارة فاطلق بعضهم على هذا القلم اسم هيراتيك اي حبري او مقدس تمثلاً بما يشبههُ من مختصر القلم الصوري المصري و ينسب هذا الاندماج الى العيلاميين الذين سادوا الكلدان حينًا من الدهر

١ ٢ ٣ ٤

وقد اورد العلاَّمة جورج رولنصن مثالاً عن علامةٍ تسبق اسم الاله عندم للدلالة على شأنهِ فكانت في القلم المقدس نجمًا ذا ثمانية اشعة كما ترى فوق الرقم ١ في هذا الشكل فلما تحسنت صناعة القلم صارت الخطوط الدالة على الاشعة ذات رؤوس كالاسافين او المسامير كما

ترى فوق الرقم ٢ نشأ منها القلم الاسفيني القديم ولكن ماعتم ان وجدت الكتابة العرضية زائدة فاندمجت بعضها ببعض حتى صارت كما ترى فوق الرقم ٣ ثم فوق الرقم ٤

ومن مزاعم بعضهم ان الاسفيني الحديث نشأ ابان بدل الاشوريون الحجر بالاجر المشوي والشمس للكتابة عليه وقالوا ان القلم الاسفيني المصلح من نتاج الصناعة الاشورية فهو اذاً اشوري غير مسبوق كانا هو مستمد من الكلدان السابقين في السيادة

والحروف الاشورية تسمى فكرية وصوتية فاما الفكرية فعبارة عن علامات يرمز بها الى كلمات وافكار واما الصوتية فتبلغ اثنين عدداً وكل منها ينوب عن مقطع والآثار القديمة يغلب فيها ان تكون مكتوبة بالقسم الاول بخلاف الآثار المتأخرة فانها من القسم الثاني

وظلت الاسفينية على انواعها مدى الني سنة تقريباً قبلما تكتب بها الامم الكلدية والاشورية والبابلية والعيلامية والآرامية والمادية والفارسية على تعاقب عروض واختلاف احوالهم حتى غلبهم اليونان بما شؤونهم عند فتح الاسكندري سنة ٣٣٠ ق م

ولقد كان من خصائص الكلدان والاشوريين ان يكتبوا على الاجر المشوي والصلصال المشمس والحجر الاصم من الالواح والصفائح والاعمدة فاما الحجر فقد كان على الاكثر محل الملوك يدونون عليه اخبارهم ووقائع دولتهم واما الصلصال المشوي والمشمس فقلما استخدموه لتلك الغاية كأنهم كانوا يحسبون الكلام المروي عنهم ارفع شأناً من ان يودع ما يظنون مادة قصعة لا تقوى على مطاولة الايام بخلاف افراد الناس في معاملتهم فانهم كانوا يستخدمون الاجر فترى عليه كتابات العلماء وسائر ارباب المصالح

والاجر اذا كان مشوياً شيئاً جيداً حفظ الكتابة سالمة من الاذى اثنا عشر الف سنة فلا دليل لنا حتى الآن على ان الاشوريين كتبوا عليها لكننا علمنا من اكتشافات بعض الثقات ان المصريين كانوا قد اتخذوا البردي ورقاً قبل نشأة الدولة الاشورية وان الصلة بين مصر واشور كانت محكمة الغرى ايام التأخر من ملوك اشور فهل يصح في الاذهان عدم شيوع البردي بين الاشوريين اما الرق فان الفرس كانوا يستعملونها بوثيق على قول فما بال الاشوريين لم يعرفوها وهم اذكى من اولئك عقلاً

ومع ان معرفة اللغة الاشورية والقلم الاسفيني قد صارت ثابتة لا ريب فيها فان الترجمات اختلفت بعض الشيء ولا غرابة في هذا لان الترجمة من لغة دارجة الى اخرى تحتمل الخطأ في فهم المترجم وتأديته فكيف حال الترجمة من لغة دارجة يحتاج مترجمها ان ينقب على كثير من كلماتها بين الفاظ لغات اخرى ليأتي لها بمعنى يناسب المقام وهذا سر

تنوع الترجمات وتهافت العلماء على القاء دلوهم في الدلاء يقصدون بذلك التثبت في اظهار الحقائق واكتساب الفوائد

اما آثار تغلث فلاسر فانها موجودة لهذا العهد في المتحف البريطاني وقد امتازت بين اشباهها من الآثار الاشورية بقدم عهدها وانها حوت كثيرًا من الاعلام التاريخية والجغرافية وان كثيرين من العلماء اهتموا بترجمتها عن اصلها حتى سنة ١٨٨٠ حين انبرى لذلك الدكتور لوتز بعناية استاذه دانرش فجاءت ترجمتهُ نتاج عمل فضى العلماء على تحقيقهِ ثلاثًا وعشرين سنة فهي اذًا سليمة من الخطاء الاَّ في مواضع معدودة يحسبها اهل النقد لا تخطر من نظرٍ وقد ترجمها العلامة سايس الى اللغة الانكليزية ونشرها في الطبعة الحديثة من كتابهِ المسمى سجل القدم Records of the Past وقال عنها كأنها ذات الكلمات التي نطق بها الملك الاشوري وان للمرء ان يعتمدها في القضايا التاريخية والجغرافية من غير احتراس ولا خوف

ونحن رأينا متابعة اولئك الاعلام والاخذ عنهم مشاركة لهم في استطلاع خفايا العصور الغابرة نعربها عن الترجمة الانكليزية هاتيك الكتابات الاثرية ولا غرو ان اكتفينا بالاخذ عن الاجنبي لان معارفنا حتى الآن لم تجاوز حدّ الاخذ عنهم والاقتداء بهم ورأينا اثناء تعريبنا ان نتابع الاصل الانكليزي ولو تجاوزنا فيهِ قيود فصاحة التركيب العربي لاسيما وان المترجم اراد متابعة الاصل وابقاء مبانيهِ كل سطر من سطورهِ على حالها ولو كان المعنى لا يتم الاَّ في سطر آخر ولعلَّ القرَّاء الالبَّاء يعذروننا في هذه المتابعة لاننا مقلِّدون

ونرى من الضرورة قبل اثبات التعريب وشرحهِ ان نمهد لهُ تمهيدًا حسنًا فنقول ان السلطنة الاشورية هي التي نشأت على ضفاف دجلة بين الدرجتين الخامسة والثلاثين والسابعة والثلاثين ثم امتدَّت تدريجًا حتى اتسع نطاقها وذلك سنة ١٣٠٠ قبل المسيح تقريبًا عقيب اضمحلال الدولة الكلدانية . اما تغلث فلاسر فهو ابن اشوريزيريم وقد حسبهُ رولنصن السادس من اسرتهِ والسابع عشر من مؤسس الدولة تولَّى الاريكة الاشورية بعد ابيهِ سنة ١١٣٠ ق . م المسيح تخمينًا لان تاريخ زمنهِ مجهول تمامًا ولولا آثارهُ لبقي امرهُ خفيًّا وانما لا يعدم المؤرخ المدقق لدى التحقيق سندًا فقد علم ان سنحاريب بن سرجون تولى الملك الاشوري بعد ابيهِ سنة ٧٠٥ ونظرًا مالكًا الى سنة ٦٨١ فدوَّن وقائعهُ على الحجر واتصل ذلك بالباحثين فترجموا الكتابة وعرفوا منها ان صاحبها سنحاريب استرجع المعبودات التي اخذها مرودخ نادين اخي ملك بابل من تغلث فلاسر بعد ان ظلَّت في بابل اربعمائة وثمانية عشر عامًا فاذا عرفنا ان غزوة سنحاريب لبابل كانت حوالي سنة ٦٨٨ ق م واضفنا الى ذلك

٤١٨ وفي عدة سنين بقاء الاصنام في الاسر بلغ الحاصل ١١٠٦ وفي السنة التي أُخذت الاصنام فيها من تغلث فلاسر على رأي العلامة مايس اما العلامة جورج رولنصن فيحسب استرجاع سنحاريب الاصنام في السنة العاشرة من ملكه اي سنة ٦٩٤ فان اضفت اليها ٤١٨ يكون المجموع ١١١٢ وفي سنة اخذت من صاحبها واذا حسب جلوس تغلث فلاسر على اريكة آبائه سنة ١١٣٠ واعتبرت نتائج هذا الاثر المروي عن خمس سنوات متعاقبة انها بدأت في سنته الثانية حقيقةً والاولى ذكرًا بلغت نهاية هاتيك المغازي سنة ١١٢٤ ق م. اما ابتداء سني الملك من سنته الثانية فملأ فانما هي عادة ملوك بابل واشور في تاريخ ملكهم ان يحسبوها بعد ان تمرّ عليهم السنة الاولى جالسين على العرش وايا ملك لم يتم الاثني عشر شهرًا على اريكته لم يقم له ذكرٌ يظهر ذلك من جدول الملوك المعروف عند المؤرخين بقانون بطلماي حيثما لا ذكرَ فيه للملوك الذين لم يتجاوزوا السنة على الاوائك . وقد وجدت صنائع اخرى تذكر بعض مغازٍ غير تلك في مدى خمس سنوات عقيب الخمس الاولى اتجه تغلث فلاسر في خلالها صوب شمالي سورية حيث فتح كركيش واخضع قبيلةً اسمها لولومي على ان هذه الصنائع لم تتصل بالعثاء الا قطعًا ولهذا لم يقتدروا الا على قراءة القليل منها ولسنا على يقين من تاريخ هذه المغازي لانها قد تكون في مدى خمس سنوات ابتدأت سنة ١١٢٣ اي عقيب انتهاء الخمس الاولى وقد تكون بعد ذلك بحيث يقيم تغلث فلاسر المهام في بلاده مستريحًا من عناء الحرب مهتمًّا بتحسين شؤون مملكته باشادة القصور العظيمة والهياكل الفخيمة لمعبوداته التي كان يحلها من التجلة والاعتبار موضعًا جليلاً

واعقب هذا الزمن نهوض تغلث فلاسر للاغارة على بابل حيث قضى في محاربتها والعيث في بلادها قتلاً واسرًا سنتين متواليتين حتى اذا قفل راجعًا واجتاز الفرات القية مروداخ ايدين اخي ملك بابل وحاربه وليس في التاريخ او الاثر من نبإٍ صريح عن انتصار البابليين ولكنهم كانوا يرتعون الاذى في ساقة الاشوريين ويضايقونهم حتى ظفروا بكثير مما كان معهم

وكان من عادة الاولين استصحاب تماثيل معبوداتهم معهم الى ساحة الوغى ليشدوا بها ازرهم اذ كانوا يتباهون بوجودها خيرًا حتى اذا اخذها العدو هامت قلوبهم وحسبوا اعترابها عنهم خسرانًا عليهم يدلنا على ذلك موضع تماثيل الآلهة عند السيارتيين والبواتيين وان اليونان المتحدين قبل ان خرجوا لمحاربة اسطول الفرس في مياه سلاميس بعثوا وفدًا مخصوصًا لاستحضار هاتيك التماثيل من هياكلها اما تغلث فلاسر فكان قد استصحب تماثيل ريمون وسالا فاستحوذ ملك بابل عليها لما ضرب ساقة الجيش الراجع من اكتساح بلاد بابل وطئ الصنان عند

البابليين حتى استرجعها سنحاريب كما ذكر من قبل.

اما اسم تعنث فالأمر فقد اتصل بنا من العبرانيين بما نقلت التوراة على ان الاثريين قرأوا اسمهُ تكلت بلزيرا ووجدوهُ مركباً كسائر اسماء ملوكهم وخمنوا اللفظة الاولى مشتقة من كلمة تؤدي معنى الاتكال فحقها اذاً ان تقرأ تكلت بالكاف دون القاف وما يليها بل زيرا فاما المقطع الاول فقد قيل انهُ بمعنى ابن والمقطع الثاني لم يجزموا بمعناهُ ولكنهم عرفوهُ ان ابن زيرا نعت المعبود المعروف عندهم باسم نبو مستدلين على ذلك بالهيكل الذي كان لهُ في كالا وهو المسمى بيت زيرا اما كلمة زيرا فحسبها السر هنري رولنصن بمعنى السيد بانياً تخمينهُ على ان كلمة زيرات تفيد معنى سيدة ونحن نرى رأي هذا الباحث المشهور لان كلمة زور العربية تفيد معنى السيد وعلى هذا يكون معنى اسم الملك "المتوكل على ابن السيد" ويشار بالسيد الى بعل. ومع انَّا عرفنا لتعنث فلأمر اسماً غير المنقول الينا فانا نبقى على استعمال الاسم الاول لشيوعهِ عندنا ولاقترابهِ من الصيغة الاصلية (البقية للتالي)

النهضة العلمية

وحظ المقتطف منها

لم يكد الجزء الماضي من المقتطف ينتشر ويطلع عليهِ العلماء والفضلاء الذين يغارون على هذا اللسان العربي ويهتمون بانتشار العلوم والفنون فيهِ حتى جاءتنا منهم رسائل شتى تعرب عن استغرابهم ما رأوهُ في المقالة المعنونة بالنهضة العلمية وكأنهم استبعدوا ان مؤلفاً يذكر كتباً لها شأن في هذه النهضة ولا يكون المقتطف واحداً منها

قال صاحب السياحة والفضل السيد البكري شيخ مشايخ الطرق ومنزلتهُ في العلم والادب اشهر من ان تذكر من كتاب طويل ما نصهُ مشبهاً المقتطف في هذا الزمان بكتاب التعليم الثاني في عصرهِ "ذلك ان العرب لما تركوا جاهليتهم الاولى وتصرفت بهم الامصار وعظمت في المشرقين والمغربين دولتهم واخذوا من الرفاهة والحضارة بالحظ الاوفر ورأوا معرفة حقائق الاشياء على ما هي عليهِ وبحثوا ايان مستقرُّ ذلك ومثواهُ وجدوهُ عند اليونان السابقين لهم في المدنية والعمران فاعتمدوا اخذهُ عنهم وأعملوا لذلك الفئة المهرة والمترجمين المجيدين كالحجاج بن مطر وابن البطريق وابرهيم ابن الصلت ومحمد واحمد والحسن بني شاكر المنجم وقسطا بن لوقا البعلبكي ويوحنا بن ماسويه الذي أوفد الى بلاد الروم لاختيار الكتب الفاضلة وحنين واسحق وثابت ابن قرة وغيرهم فنقلوا من ذلك ما شاء الله ان ينقلوا من الكتب الموضوعة في